ســـــطور زرق

للاستاذ راجي الراعي

وقفت أمام البحر أسأل عن وعثته.. لماذا يرتعش البحر ؟

أيرى نفسه على رحابته وعظمته سجيناً فى مكان رسم له فى الأرض لايستطيع أن يفلت من قضبانه ليهجم على اليابسة عدوته الأزلية فيرتعش رعشة الاسد السجين يقف الحديد بينه وبين أطماعه؟ رعشة القوى الشاعر بقوته ولكنه لا يمارسها ؟

أم هو يرى جريمته فى بقايا الأبطال من غرقاه فيرتعش رعشة الخاطىء الذى حالف الموت فأعطاه مكانا باقى فيه بعض الخلائق التى حصدتها مناجله وضاقت بها الأضرحة ؟

أم هو يضن بدرره المستقرة فى قلبه ويخشى عليها من حيتانه فيرتعش رعشة الغنى أمام الأيدى الجريئة التى تمتد حول خزائنه ؟

أم هو يرى يومه الأخير الذى يسدل فيه على روايته ستارها الأزرق ويعود إلى اليابسة فيرتعش رعشة الحى المتشبث بيومه الخائف من غده ؟ لماذا يرتعش البحر ؟

أهو شاعر عبقرى روحانى نورانى خلق ليعيش فى عالمه بين افكاره وأحلامه وعواطفه بعيداً عن الانسان والانسانية قريباً من نفسه ومن خالقه ، وليكون جزيرة بارزة مستقلة عن أبناء التراب فى بحر الوجود ، يرى نفسه ملكاً لسواه ، وساحة عامة يطأها العابرون ، وصدراً مفتوح الرئتين يلقب والضلوع تشقه السفن والدارعات والطرادات والنسافات على مختلف أسمائها وألوانها ، وتنفث فيه دخانها وتصيح صيحاتها وتلقى مراسيها فيرتعش رعشة العبقرية التى أقامت لنفسها الهياكل العاجية فاستباح حماها واسود عاجها ، رعشة الشاعرية التى سدلت الستار على آلهتها فمزقتها الأيدى القاسية الأثيمة ؟

أم هو يرى فى مائه تلك الدموع التى التقطها من العيون الباكية ، وأنه من أجل ذلك يجسم اليأس ، وأن كل كئيب يصب فيه ثمالة كأسه ، وأنه الثملات فى كأس واحدة ، والدموع فى عين واحدة، فيرتعش فيه الوهية الألم التى اتخذته لها معبداً ؟

أم هو يحدق فى الهـــه (نبتون) ويؤمن بأنه إله الآلهة فيرتعش رعشة العبادة والايمان ؟ أم هو بين موجته المجنونة وغايته المجهولة رجل أضاع عقله فارتعش رعشة الجنون ؟

أم هو يشرب حمرة الزبد البيضاء فيرتعش رعشة الثمـــل ؟ أم هو المرأة ذات العينين الزرقاوين يراها (كيوبيـــد) إله الحب منتهى حبه وإطار خياله ، ويمسح بثوبها الأزرق دم كل سهم من سهامه التى رمى بها العشاق فترتعش الرعشة الكبرى ، رعشة الرعشات؟

لا أدرى لماذا يرتعش البحر ولا هو يدرى. هو البحر ومع ذلك لا يعرف نفسه، ولعله لا يعرفها لأنه البحر .

وأرهفت أذنى للموجة الزرقاء فسمعت أصواتاً تقول لى : أنظر كيف تشق عبابى السفينة، ويلعب باحشائى الغواص ، وكن مثلى رحب الصدر صبوراً — صارع صخورك كموجاتى وكن وثاباً، وإذا استرحت فلتكن راحتك تأهباً لوثبة الغد — أنا مع عظمتى أسير تقيده الشواطىء فاذكر دائمـــاً أنك مهما علوت وشمخت وحملت الصواجة وركبت العروش لاتستطيع أن تكون حراً ؛ وأن الحياة جهاد للتملص من ربقة الشاطىء الذى يقف فى طريق النفس الهائجة فيمنعها من أن تتجلى بكل ما فيها من أنوار ونيران لتحقق أحلامها وتسكب خمورها — أنا وادع ثائر عاقل مجنون ،فكن مثلى حكيما وفرق بين سيفك وندائك ..

وسمعت صوتاً صارخاً يقول : أيها الشرف على عالمنا المتفرس فى حياتنا البحرية، أنظر إلى أنا السمكة الصغيرة تبتلعنى السمكة الكبيرة لأنها القوة ولأننى الضعف ، وإليك أشكوها أيها الانسان؛ فهل لك أن تحول بطشها عنى وتضع فى قلبها شيئا من الرحمة والحنان؟ فقلت لها : أيتها المستجيرة بى، بنا على الشاطىء مابك فى الماء ، نحن أسماك الأرض يأكل كبيرنا صغيرنا ، ويقتل قوينا ضعيفنا فسيف القوة مصلت فى البر والبحر؛ وكأن الأقوياء فيهما يؤلفون عصبة واحدة ويتنادون ؛ فكلما ريح الظلم فريسة فى بطن

السياسة ؛ فتركيا تستشيره وتعرض عليه المجد، وفرنسا تستنصره وتلوح له بالذهب ؛ ولكن كرد على الزاهد العابد يرد على تركيا الشرف والإمارة ، ويرفض من فرنسا المال والوزارة !! لاأدرى لماذا خطر ببالى الساعة ابن زيدون وابن عبدوس والرسالة الهزلية ؟!

مرعي المزاك

الماء ريح أخرى على سطح الأرض - الظلم يا سمكتي الصغيرة قديم، والظلم في كل مكان. فلا تستجيري بابناء الأرض، ولا تحسبي انك إذا خرجت من الماء أفلت من قبضة الأقوياء ..

ودرت حول البحر أسأله : هل هناك ما يشبهك في الأرض؟ فقال : تشبهني الصحاري ولكنها بحور جامدة، والتلال ولكنها بحور سود ..

وسألته : كيف أنت والأفق ؟ فقال : شقيقان لفظتنا احشاء امرأة هي الطبيعة؛ والصلات التي تجمعنا عديدة. فلوننا واحد هو الزرقة، وجيوشنا لا تعد ولا تحصى؛ فللافق نجومه ولي موجاتي ، وكلانا رمز العظمة واللانهاية؛ ولكل منا وجهه الغضوب. فللافق صاعقته التي يمطس بها أنفه ، ولي بركاني الثائر، وفي قلبينا تستقر الدرر ..

وسألته : كيف أنت والصياد ؟ فقال بلهجة الفائز : انني آخذ أكثر مما أعطى . إن غرقاي الذين أغنمهم أوفر عدداً من الأسماك التي يغنمونها مني..

وسألته : هل أنت عصاي أيها البحر ؟ فحنى رأسه وقال : ان عيبي الوحيد هو أنني استمير مجدي وقوتي من سواي ؛ فلولا تلك الينابيع والأنهار والجداول لم أكن . انها تموت في لأحيا، وتصب في كنوزها لأصبح ثرياً ... انها تعطيني جنيها لأتجبر ؛ وتضع في صدري الملايين من القلوب ليظل نابضاً إلى الأبد . . أنا كالقمر يستمد نوره من الشمس ولولاها لم يكن القمر . أنا البحر ولكني رجل مدين لا يستطيع أن ينطح السحاب بأنفه الجبار .

وسألته عن البخار الذي ينفثه ، فبدت على وجهه الرحمة وقال: أنفثه لتكب الغمامة ماءها فتحيي الشجرة ، ابن الحنان أنا جاءني به ذلك الينبوع الذي وهبني قلبه ...

وسألته : هل للشعر مكان فيك ؟ فأجاب : شاعريتي في رعشتي، وصور خيالي المتوالية المتعاقبة في هذه الموجات ...

وسألته عن البراكين فأجاب: عندما أغضب الغضبة الكبرى وتعجز الموجة عن أن تسمها ، أطلق بركاني ، ومن عجائبي انني أخرج النار من مائي ..

وسألته : كيف أنت والجبل؟ فقال : الجبل ضيق وأنا فسيح. الجبل مقطب الجبين وأنا طلق المحيا . الجبل صخرة وانا رعشة . الجبل عقل صارم وإرادة باطشة، وأنا قلب خفاق وشعور صارخ، وإذا كان للجبل عقبانه على قمته، فلي كنوزي في أعماقي.

وسألته عن الغزاة الفاتحين فقال : إن لهم بحورهم ولكنها من دماء . .

وعن الفلاسفة فقال : أنا في كل كرة من كرات شكهم ويقينهم . انهم يموتون صرعى بين أمواجهم التي تفعم كيانهم ..

وعن المنتحرين فقال : انهم يؤثرون موجتي الهائجة على التراب البليد الصامت ..

وسألته : كيف أنت والخيانات ؟ فقال : اني أعرفها . فكم من عقيدة طرحها في صاحبها ولم يسأل عن غده ..

وسألته : من هم أعداؤك الألداء؟ فقال : القناعة والتشاؤم والبخل والعقم ..

وسألته عن الابعاد فقال : انها موجات في بحر الخلود ..

وسألت وسألت حتى خشيت أن يستهويني البحر . وقبل أن تركت الشاطىء وعدت إلى صلاة الأرض سجدت أمام (نبتون) وصليت صلاتي الزرقاء فقلت :

يارب السماء !

ضع من قلبك في قلبي فتتسع دائرته ويغزر دمه ، واضرب بموجاتك الصخور القائمة في طريق خيالي وأحلامي ..

غذ ارادتي لأحطم كآبتي وضعفي، وارفعني إلى محبتك لأبسط كتابي في العالمين ..

افتح عيني لتسمك وأذني لتسمعك ..

جملني بالعظمة والصبر، واجعل صدري رحباً ليسع الناس ولؤمهم والأقدار وظلمها ..

أغرق في الوجه القبيح من انسانيتي ، وأبق لي وجهها الجميل وزده جمالا ..

أغرق صحراوي واجعلني بحرا وخذني أنت لاسواك في يوم الأخير ، وارحمني من وطأة ذلك الحجر البارد الثقيل اللئيم أيها الكريم الرحيم ..

راجي الراعي